مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله تعالى الذي خصّنا بخير كتاب أنزل، وأودع فيه أحكامه وحكمه، وأدار تحقيق مصالح عباده معاشاً ومعاداً على اتباعه والاحتكام إليه، فكان بحق كتاب هدى ورحمة استنارت به العقول، واطمأنت به النفوس، وانشرحت به الصدور، واهتدت به القلوب. فهو دستور أمة الإسلام، ومصدر عزّها، وينبوع صلاحها وفلاحها.

وأصليّ على سيد الخلق أجمعين، نبينا محمد ﷺ، الذي كان القرآن أنيسه في الوحشة وجليسه في الوحدة، بل تمثّله عملياً، فكان قرآناً يمشي، فهو خير من جسّد تعاليمه، وبيّن معانيه ومضامينه، وعلم أصحابه -ومن خلالهم أمته- كيف يستنبطون الحكم والأحكام، ويجعلونه مفرعهم عند النوازل والوقائع، وكيف لا يكون كذلك وهو خاتم الكتب والمهيمن عليها إلى يوم الدين.

فلا غرور أن انصرفت همم العلماء إلى هذا الكتاب الكريم، تعريفاً به وبأحكامه وتفسيراً لمعانيه ومضامينه، واستخراجاً لدرره ولآلئه.

وقد كان من أهم الأعمال التي اضطلعوا بها تجاه هذا الكتاب العزيز الاشتغال بتفسيره؛ فتنوعت في ذلك مناهجهم، وتعددت مشاربهم، واختلفوا في تفسيراتهم، بين منصرف إلى الجانب الفقهي، وشغوف بنكت المعاني

والبدیع، وآخر مهتم بالجانب اللغوي، وهكذا.

ومن بين المجالات التي اضطلع العلماء بذكرها والتنبيه إليها:

المصالح التي تتضمنها نصوص القرآن الكريم، كونه كتاب نور وهدى يحوي مصالح الخلق في العاجل والآجل معاً.

ومن أكثر المذاهب الفقهية - في رأيي - إعمالاً للتفسير المصلي لنصوص القرآن الكريم: المذهبان الحنفي والمالكي.

وهنا نجد للزعة المذهبية حضوراً واضحاً في تفسير القرآن، سواء تعلق الأمر بفهم النص القرآني أو الاستنباط منه أو الترجيح به، كل ذلك في ضوء اعتبار المصلحة الشرعية.

وكان من بين العلماء الذين اضطلعوا بهذه المهمة: الإمامان الجصاص وابن العربي، اللذين جاء هذا البحث ليتناول تفسيرهما المصلي للنصوص نموذجاً لذلك، فكان عنوانه كالاتي:

«التفسير المصلي لنصوص القرآن بين مدرستي الأحناف والمالكية»

إشكالية الموضوع:

هذا البحث يأتي من أجل الإجابة عن الإشكالية الآتية:

- هل يعتد الإمامان الجصاص وابن العربي بالمصلحة في تفسير نصوص القرآن الكريم استنباطاً وترجيحاً؟.

ويتفرع عن هذه الإشكالية الرئيسة جملة من التساؤلات المهمة:

- هل هناك حاجة تدعو إلى الأخذ بالتفسير المصلي للنصوص؟ وما هي المجالات التي يُعمل به فيها؟

- ما هي ضوابط التفسير المصلي للنصوص؟
- هل يقتصر التفسير المصلي للنصوص عند الجصاص وابن العربي على العبادات فقط؟ أو المعاملات فقط؟ أو يشملهما معاً؟
- ما هي معالم الاتفاق والاختلاف بين الإمامين فيما يخص التفسير المصلي للنصوص؟ وأيهما أكثر إعمالاً له من الآخر؟
- هل بالإمكان استخلاص قواعد مصليّة من التفسير المصلي للنصوص عند الجصاص وابن العربي تُسَعِّفُ المجهِّد في اجتهاده استنباطاً وتنزيلاً؟
- ما مدى إمكانية الاستفادة من التفسير المصلي للنصوص في الإجابة عن النوازل والوقائع؟

أسباب اختيار الموضوع:

الأسباب في الحقيقة قسمان:

- أسباب ذاتية:

وهي الرغبة في البحث ضمن إطار مصالح الشريعة الغراء ومقاصدها، وهي رغبة راودتني مذ كنت في مرحلة التدرج، فلما يسّر الله تعالى لي الوصول إلى مرحلة الماجستير وتطلب الأمر تقديم مذكرة لأجل ذلك كان البحث في مصالح الشرع نصب عيني ومحط اهتمامي وشغفي، فكان هذا الموضوع مجسداً لتلك الرغبة.

- أسباب موضوعية:

أظن أن جهود الإمامين الجصاص وابن العربي في الكشف عن مصالح

النصوص ومقاصدها لم تنل الاهتمام اللازم والعناية اللائقة بها، خاصة وأن مدار إسهاماتهما في هذا الجانب توجهت إلى التعامل مباشرة مع نصوص القرآن الكريم، الأصل الأول والرئيس لأحكام الشرع.

فدفعني ذلك إلى البحث في هذا الموضوع أملاً في الكشف عن إسهامات الإمامين في مجال المصالح الشرعية.

أهمية الموضوع:

إن هذا الموضوع على قدر كبير من الأهمية -في ظني- ذلك أنه يتناول أصلاً مهماً من الأصول الشرعية، بل إنه أصل الأصول، ألا وهو: القرآن الكريم، وتفسير نصوصه ضمن إطار المصلحة المعتبرة شرعاً.

حيث يأتي للكشف عن جهود إمامين جليلين وإسهاماتهما في بيان مصالح نصوص القرآن الكريم وتوظيف ذلك في باب الترجيح بين الأحكام، بما من شأنه أن يخفف -إلى حدٍّ ما- من وُقوع الخلاف الفقهي، ويقدم صورة عن المنهج الوسطي والمعتدل في التعامل مع نصوص القرآن الكريم، من خلال التوفيق بين الظاهر والمعنى بكيفية لا تغليب فيها لجانب على آخر، دون مسوغ شرعي أو لغوي.

كما أن هذا الموضوع يأتي لبيان جوانب الاحتياج إلى التفسير المصلحي للنصوص، وأهم الضوابط الكفيلة بأن يحقق الغاية المرجوة منه.

أهداف الموضوع:

هذا الموضوع يسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف، والتي يمكن حصرها في الآتي:

- إبراز شخصية الإمامين الجصاص وابن العربي، وإسهاماتهما في تجلية مصالح الشرع ومقاصده.
- بيان كيفية تعاملهما مع نصوص القرآن من حيث تفسيرهما مصلحياً.
- إظهار أوجه الاتفاق والاختلاف بين الإمامين فيما يتعلق بتفسيرهما المصلحي للنصوص.
- وضع ضوابط محددة للتفسير المصلحي للنصوص، دون تأويل متعسف أو لِي لعنق النص بدعوى إعمال المصلحة أو تحصيلها.
- محاولة استخلاص قواعد مصلحية تتعلق بالتفسير المصلحي من خلال ما عني به الجصاص وابن العربي؛ قصد الاستفادة منها في التعامل مع نصوص الأحكام، تعاملاً يضمن استغلال الطاقة التشريعية للنص استغلالاً تاماً؛ أملاً في توسيع المجال الذي يمكن للمجتهد الاجتهاد على ضوئه في استنباط الأحكام وتنزيلها على الواقع.

منهج الموضوع:

طبيعة الموضوع اقتضت مني أن أسلك فيه منهجاً يشمل: الاستقراء والاستنباط والمقارنة.

فقد كان الاعتماد على المنهج الاستقرائي في تتبع كلام الإمامين الجصاص وابن العربي وما يرتبط منه بالتفسير المصلحي للنصوص، سواء تعلق الأمر بنصوص العبادات أو نصوص المعاملات.

واعتمدت على المنهج الاستنباطي في استخراج المسائل التي تناولها الجصاص وابن العربي على ضوء الاهتداء بالتفسير المصلي للنصوص، مع التحليل والمناقشة المصاحبة لذلك.

واعتمدت على المنهج المقارن عند الموازنة بين تفسيري الإمامين، محاولاً بذلك الوقوف على أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، ومدى تفاوتهما في الأخذ بالمصلحة وتحكيمها في التعامل مع النص القرآني استنباطاً للأحكام وترجيحاً بينها.

خطة الموضوع:

هذا الموضوع تطلب مني أن أقسمه إلى: مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول رئيسة، وخاتمة، فكانت الخطة على النحو الآتي:
مقدمة.

فصل تمهيدي: ترجمة الإمامين الجصاص وابن العربي والتعريف بكتائيهما.

المبحث الأول: ترجمة الإمام الجصاص والتعريف بكتابه «أحكام القرآن».

المبحث الثاني: ترجمة الإمام ابن العربي والتعريف بكتابه «أحكام القرآن».

الفصل الأول: التفسير المصلي للنصوص - دراسة نظرية.

المبحث الأول: التعريف بالتفسير المصلي للنصوص.

المبحث الثاني: نشأة التفسير المصلي للنصوص وتطوره.

المبحث الثالث: مجالات التفسير المصلي للنصوص والحاجة إليه.

المبحث الرابع: ضوابط التفسير المصلي للنصوص.

المبحث الخامس: التفسير المصلي للنصوص عند المعاصرين.

الفصل الثاني: التفسير المصلي لنصوص العبادات.

المبحث الأول: التفسير المصلي لنصوص الطهارة.

المبحث الثاني: التفسير المصلي لنصوص الصلاة.

المبحث الثالث: التفسير المصلي لنصوص الزكاة.

المبحث الرابع: التفسير المصلي لنصوص الصوم.

المبحث الخامس: التفسير المصلي لنصوص الحج.

المبحث السادس: الموازنة.

الفصل الثالث: التفسير المصلي لنصوص المعاملات.

المبحث الأول: التفسير المصلي لنصوص المعاملات المالية.

المبحث الثاني: التفسير المصلي لنصوص الأسرة.

المبحث الثالث: التفسير المصلي لنصوص القصاص والحدود.

المبحث الرابع: التفسير المصلي لنصوص الجهاد.

المبحث الخامس: التفسير المصلي لنصوص السياسة الشرعية.

المبحث السادس: الموازنة.

خاتمة.

ملحق (القواعد المصلحية العامة عند الإمامين الجصاص وابن العربي)

- فهرس الموضوعات .

مصادر الموضوع ومراجعته :

لقد كانت مصادر هذا الموضوع ومراجعته عديدة ومتنوعة، شملت القديم منها والحديث .

ويأتي في مقدمتها: «الموافقات» للإمام الشاطبي، و: «مقاصد الشريعة الإسلامية» للشيخ ابن عاشور، فقد أفدت من هذين الكتابين كثيرًا لا سيما في الفصل الأول الذي يشمل الدراسة النظرية للموضوع .

كما كان الاعتماد كذلك على الكتب والمراجع المعاصرة التي اهتمت بالبحث في مصالح الشريعة ومقاصدها؛ ك: «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي» لأحمد الريسوني، و: «نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي» لحسين حامد حسان، و: «دراسة في فقه مقاصد الشريعة» ليوسف القرضاوي. وغيرها من المراجع التي أفدت منها في البحث .

إضافة إلى أمهات الكتب الفقهية عند مختلف المذاهب؛ ك: «المدونة» عند المالكية، و: «بدائع الصنائع» عند الحنفية، و: «الأم» عند الشافعية، و: «المغني» عند الحنابلة، و: «المحلى» لابن حزم. وكذا كتاب ابن رشد: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» .

الدراسات السابقة :

من خلال ما اطلعت عليه من كتب ورسائل جامعية لم أفق على ما هو أصيل في بابيه من حيث التصاقه بموضوع البحث .

وما وصل إليه اطلاعي هو دراسات تناولت تفسير الإمامين من

الجانب الفقهي أو التفسيري، ولم أجد من أفرد الحديث عن التفسير المصلحي للنصوص عندهما.

ومن بين تلك الدراسات التي وقعت عليها يدي:

- «الإمام أبو بكر الرازي الجصاص ومنهجه في التفسير» ل: صفوت مصطفى خيلوفيتش، وهو كتاب أصله رسالة دكتوراه نوقشت بالأزهر.

- «منهج ابن العربي في تفسيره أحكام القرآن» ل: منصور كافي، وهي رسالة ماجستير في الكتاب والسنة نوقشت بجامعة باتنة - الجزائر.

- «اختلاف القاضي ابن العربي على الإمام الشافعي من خلال أحكام القرآن» ل: فريخ حمدان، وهي رسالة ماجستير في الفقه وأصوله، نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة - الجزائر.

إلا أن هذه الدراسات وغيرها مما يماثلها لا تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع البحث؛ كونها اكتفت بالإشارة العابرة إلى المصلحة أو التفسير المصلحي للنصوص عند الإمامين الجصاص وابن العربي، إذ إن اضطلاعهما كان بالدرجة الأولى منصباً على العناية والاهتمام بالجانبين: الفقهي والتفسيري. هذا عن الجانب التطبيقي من الدراسة.

كما أشير إلى كتاب: «الاجتهاد (النص، الواقع، المصلحة)» لأحمد الريسوني ومحمد جمال باروت الذي تحدث عن التفسير المصلحي للنصوص في شكل محاور علمية بين المؤلفين.

وهو الآخر اكتفى بتعريف التفسير المصلحي للنصوص، وتناول بعض المسائل أو الإشكالات التي تتعلق به؛ كمسألة: «تعارض النص مع المصلحة».

منهجية الموضوع:

اتبعت منهجية واضحة في هذا الموضوع، حيث قمت بإثبات الآيات القرآنية بنص الخط العثماني برواية حفص عن عاصم مخرّجاً إياها في متن البحث. وقمت بتخريج الأحاديث النبوية من كتب السنة غير مكتفٍ بذكرها في الصحيحين، وما لم أقف على تخريجه منها فإني أنبّه إلى ذلك. وخرّجت الآثار الواردة في البحث ما لم أعثر عليها فإني أشير إلى ذلك في الهامش. كما شرحت الكلمات الصعبة الوارد ذكرها في متن البحث.

وعند توثيق المعلومة كنت أُحيل إلى مصدرها بذكر اسم المؤلف أولاً ثم عنوان المؤلف ثم التحقيق -إن كانت محقّقة- ثم دار النشر، ثم مكانه، فالبلد الذي طُبِع فيه، وكذا أذكر رقم الطبعة وتاريخها إن وُجد، ثم أذكر الجزء والصفحة بين قوسين فاصلاً بينهما بخط مائل، جاعلاً رقم الجزء على اليمين والصفحة على اليسار.

كل هذا إذا ذكرت المصدر أو المرجع في المرة الأولى، فإن أعدت ذكره في ذات الصفحة اكتفيت ب: نفس المصدر أو المصدر نفسه، وإن حال بين التوثيق الأول والثاني من نفس الكتاب توثيق آخر قلت: المرجع السابق، أما إذا ذكر المصدر أو المرجع في صفحة أخرى وكانت معلومات النشر قد سبق ذكرها فإني أعيد ذكر اسم المؤلف والمؤلف، وقد عنيت كذلك بإبراز عنوان الكتاب دائماً بخطٍ سميكٍ للتمييز.

وبالنسبة للمسائل الفقهية فكنت أرجع إلى أمّهات الكتب في المذاهب المعتمدة، وأحياناً أكتفي بمذهبين أو ثلاثة وقد لا أذكر أيّاً منها أحياناً خاصةً عند تعذّر إيجاد المسألة بعينها في كتب الفروع الفقهية.

أما بالنسبة للفهارس العلمية فقد كان الترتيب فيها معتمداً على الترتيب الألفبائي، باستثناء الآيات القرآنية فقد رتبها حسب ترتيب المصحف.

وبالنسبة للمسائل المتناولة في هذا البحث فقد كنت أذكر كلام الإمامين الجصاص وابن العربي في المسألة مصدرًا للكلام بذكر الآية التي استنبط منها الحكم؛ لأعقب ذلك بذكر وجه التفسير المصلحي مستخرجًا إياه من تفسير الإمامين.

صعوبات الموضوع:

لا يخلو موضوع من صعوبات تعترى صاحبه، بغض النظر عن حجمها وتأثيرها في مسار ذلك الموضوع، وكغيري من الباحثين فقد واجهتني صعوبات متنوعة تعود في الأساس إلى طبيعة الموضوع لا سيما الجانب النظري منه، والذي يتطلب جهداً كبيراً وسعة علم معتبرة كونه يضطلع بعملية التنظير والتأصيل، وهي عملية صعبة للغاية كما لا يخفى.

إلى جانب الصعوبات التي واجهتني في البحث والتنقيب عن المسائل الفقهية بين بطون الكتب، بحيث يصل الأمر أحياناً إلى عدم الوصول إلى المبتغى.

وفوق كل هذا فإن قلة الخبرة وضآلة الزاد العلمي كانتا من بين أشدّ الصعوبات وقعاً على نفسي.

لكن ومع جميع ما تقدم ذكره فإني -يعلم الله- لم أدخر جهداً أو أقعد كسلاً أو أتوانى عن المضيّ قدماً في هذا البحث، وإكماله إلى نهايته والوصول به إلى هذه الدرجة.

فإن وُفِّت في سعيي فهي نعمة الله تعالى وحده، وإن جانبُ الصواب
فإلى نفسي والشيطان أكل ذلك، وأستغفر الله تعالى.

غرّة شوال ١٤٣٤هـ / ٨ أغسطس ٢٠١٣م

المغير الحبيبة - الوادي - الجزائر

منير بن رابح يوسف

mouniry_2011@yahoo.fr